

❖ [٧٧] لا يفتى ومالك في المدينة (١) ❖

كلمة نسمعها كثيراً ونردها في بعض المواقف والمناسبات ، وهي تدل على عظيم قدر الإمام مالك وعلو مكانته وغازاة علمه ، وقد أضحت مثلاً يضرب لمن أريد الإشادة بعلمه وفضله والرجوع إليه وقبول قوله وحكمه ، فما أصل هذه الكلمة وما سبب إطلاقها ؟!! .

يروى أن امرأة في المدينة المنورة ماتت فجيء لها بالمغسلة ، فلما وضع الجثمان وتقدمت المغسلة لتباشر الغسل ، صببت الماء على جسد هذه الميتة وجعلت تدلكه فلما وصلت بالدلك إلى فرج الميتة قذفتها بالسوء وقالت : كثيراً ما زنى هذا الفرج ، فالتصقت يد المغسلة بجسم الميتة ، وجعلت لا تستطيع فصلها عن جسمها ، فأغلقت الباب حتى لا يراها أحد على هذه الحال .. وأهل الميتة ينتظرون خروج المغسلة من البيت ، لكنها أبطأت .. فدخلت إحدى النساء عليها فرأتها على هذه الهيئة ، فحاولوا فصل اليد الملتصقة بالجسم لكنهم لم يستطيعوا ، فسألوا العلماء في شأنها فتحيروا ... واختلفوا .. أيقطع جزء من جسم الميتة لتخليص اليد ؟ أم تقطع اليد وتدفن مع الجثة ؟!! وأخيراً قالوا : علام نختلف وبيننا عالم المدينة الإمام مالك ؟! ، فسألوه فحضر بنفسه وسأل المغسلة من وراء الباب .. ماذا قلت في حق الميتة ؟ فصارحته بالحقيقة وقالت : لقد رميتها بالزنا ! ، فقال الإمام مالك : هذه المرأة قاذفة وحد القذف ثمانون جلدة ، فلتجلد المرأة ثمانين جلدة فباشروا الضرب ، وبعد تمام الجلدة الثمانين رفعت يد المغسلة من جسد الميتة وانفصلت عنها ... ومن ذلك الحين قالوا : لا يفتى ومالك في المدينة .

(١) مواقف مشرقة في حياة السلف ، محمد موسى الأسود .

[٧٨] الفاجعة ^(١)

غداً أسافر إلى المدينة ..

انتبه لنفسك يا بني ..

لا عليك يا أمي .. سأدرس الطب لأقف بجانبك وأعالجك .. الحمد لله ..
كنت أنتظر هذا منذ مدة .. وها أنت ستبدأ الدراسة عما قريب .. لا تنسنا من
الرسائل يا ولدي ..

سأكتب لك دائماً يا أمي ..

ويصبح الصباح وتشرق الشمس في سماء القرية التي تجتمع أهلها لوداع
فلذات أكبادها .. عدد من الشباب سيغادرون القرية للدراسة في الجامعة ..
ويسافر خالد وليس يشغل باله إلا الدراسة ..

سأبذل كل جهدي .. لن أراجع إلى الورا .. سأنال الشهادة وأعود
طبيباً عظيماً أعالج الناس في قريتي ..

ويصل المدينة ويبحث عن سكن .. يجد بيتاً متواضعاً يسكن فيه ، وتبدأ
الدراسة .. ينكب خالد على دروسه وكأنما يلتهم العلم إلهاماً .. يتفوق في
الاختبارات على أقرانه .. ينتبه زملاؤه لتقدمه .. ينال إعجاب الجميع ..

عاش في جو الجامعة المتميز بالاختلاط .. كانت المغريات تحف به ..
ولتفوقه كانت الفتيات تلاحقنه ويهرب منهن .. لم يقلت من شر الأشرار ..
خطط له جماعة منهم ليوقعوه في حبالهم .. حاولوا مراراً وبكل الوسائل دون

(١) حوادث واقعية للحميدى .

قائدة .. ثم نصبوا له بعد ذلك شرك المخدرات .. ووقع فيه بعد تناول حبة واحدة في حيلة خبيثة فعلها الأشقياء ..

شعر باضطراب غريب .. أصابه الهيجان وتملكته العصبية ، بحث عن حل لما هو فيه .. قاده ذلك إليهم .. وغدا ذليلاً بين أيديهم ..

بدأ يتخلف عن الدراسة في الجامعة .. هزل جسمه .. بدأ يتقبل فعل المنكرات .. لم يعد يتردد في ارتكاب المعاصي والآثام .. صار علماً بارزاً لعصابات المخدرات .. وقع في شرك الزنا .. كان واحداً من أولئك الذين تفرغوا لاصطياد الفتيات ويقاعن في شباك الفساد والفجور .. واتفق معهم على اصطياد فتاة كل أسبوع وتناوب مع رفقاء السوء في ارتكاب الفاحشة .. وظل على هذه الحال حتى غربت شمس ذلك اليوم .. جاء إليه أحد أصدقائه ..
خالد .. خالد .. أتينا بفتاة جميلة ..

حقاً .. وأين هي ؟

إنها تنتظرك .. فقد جاء دورك ..

هل انتهيت أنت .. ؟

نعم .. هيا ..

وينهض بخفة وقد تملكته البهجة والسرور .. ويتجه لباب الغرفة مقبلاً على الفاحشة لا يردعه رادع ، ولا يرده وازع .. يدخل ويغلق الباب .. يلتفت لينظر إلى الفتاة الجميلة .. آه .. من .. ؟ !!! .

ويجثو على ركبتيه .. لا .. لا .. ما الذي جاء بك إلى هنا .. ؟ .

شعر باختناق لهول الفاجعة .. أحس وكأن صاعقة أصابته وأحرقت قلبه .. إنها أخته .. تلك الفتاة التي جاءت للمدينة للبحث عنه ومعرفة أخباره .. ضلت الطريق ووقعت في شباك الأشقياء الفجرة لتدفع ديناً باهظاً على أخيها .. !! .

[٧٩] يُطَلَّقُ خَمْسَةَ فِي سَاعَةٍ !!

كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهن يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات ، فقال : إلى متى هذا التنازع ؟ ما أظن هذا الأمر إلا من قبلك « يقول ذلك لامرأة منهن » : اذهبي فأنت طالق ، فقالت له صاحبتها : عجلت عليها بالطلاق ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً ، فقال لها : وأنت طالق .

فقالت الثالثة : قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين وعليك مفضلتين . فقال : وأنت أيتها المعدة طالق أيضاً .

فقالت له الرابعة : وكانت هلالية وفيها أناة شديدة : ضاق صدرك على أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق ؟ فقال لها : وأنت أيضاً طالق .

وكان ذلك بسمع جارة له ، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه ، فقالت : والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا بما بالوه منكم ووجدوه فيكم ، أبيت إلا طلاق نساءك الأربع في ساعة واحدة ، فقال لها : وأنت أيتها المؤنبه المتكلفة طالق إن أجاز زوجك ... فأجابه من داخل بيته : قد أجزت .. قد أجزت ...



[٨٠] كلمة حق عند سلطان جائر^(١)

دخل الحسن البصري التابعي الجليل على الحجاج بن يوسف^(٢) ، بواسط ، فلما رأى بناءه قال : الحمد لله ، أن هؤلاء الملوك ليرون في أنفسهم عبراً ، وأنا لرى فيهم عبراً ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده ، وإلى فرش فيتخذه ، وقد حفى به ذباب الطمع ، وفراش نار ، ثم يقول : ألا فانظروا ما صنعت ، فقد رأينا - يا عدو الله ما صنعت ، فماذا يا أفسق الفسقة ، ويا أفجر الفجرة ، أما أهل السماء فلعنوك ، وأما أهل الأرض فمقتوك .

ثم خرج وهو يقول : إنما أخذ الله الميثاق على العلماء ، ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

فاغتاظ الحجاج غيظاً شديداً ثم قال : يا أهل الشام ، هذا عبيد أهل البصرة يشتمني في وجهي فلا ينكر عليه أحد ، عليّ به والله لأقتلنه ، فمضى أهل الشام ، فأحضره ، وقد أعلم بما قال ، فكان في طريقه يحرك شفتيه بما لا يسمع .

فلما دخل على الحجاج ، رأى السيف والنطع^(٣) بين يديه وهو متغيّظ ،

(١) الفرج بعد الشدة والضيق ، للحازمي .

(٢) والي العراقيين لعبد الملك بن مروان ، وهو الذي يضرب به المثل في الظلم والجور ، وبلغ من حقه على رسول الله ﷺ أنه لما دخل المدينة سماها : ننتة وقد سماها النبي ﷺ طيبة ، وسمى الأنصار ، الأشرار ، ولد الحجاج في الطائف سنة ٤٠ هـ ، وكان أخفش العينين ، دقيق الصوت ، وكان سفاكاً للدماء ، قتل أكثر من مائة ألف رجل ، ولما مات خلف في حبه ثمانين ألف حبسوا بغير جرم ، منهم خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، قال الخليفة عمر بن عبد العزيز : لعن الله الحجاج ، فإنه ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة .

(٣) النطع : بساط من الجلد يقتل عليه حتى لا يتسخ المكان بالدم - الناشر - .

فلما وقعت عليه عين الحجاج كلمه بكلام غليظ ورفق به الحسن ووعظه ، فأمر الحجاج بالسيف والنطع فرفعا ، ثم لم يزل الحسن يمر في كلامه ، إلى أن دعا الحجاج بالطعام ، فأكلا ، وبالوضوء فتوضأ ، وبالغالية ، فغلفه بيده ، ثم صرفه مكرماً .

قيل للحسن البصري : بم كنت تحرك شففتيك ؟

قال : قلت يا غيائي عند دعوتي ، يا عدتي في ملمتي ، ويا ربي عند كربتي ، ويا ولي في نعمتي ، ويا إلهي وإله إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وموسى وعيسى ، ورب النبيين كلهم أجمعين ، يا كافي موسى فرعون ، ويا كافي محمد الأحزاب ، صل على محمد وآله الطيبين الطاهرين الأخيار ، وارزقني مودة عبدك الحجاج ، وخيره ، ومعروفه ، واصرف عني أذاه وشره ومكروهه . فكفاه الله تعالى شره بمنه وكرمه .



[٨١] غلام يتورع

كان رجل من قبيلة شيبان ، فى العصر العباسى الأول ، يعمل عند السلطان فى مهمة دقيقة ، وهى أنه يتجول فى السوق كل صباح حتى الظهر ، ويتحسس ما يقوله الناس ويفعلونه ويكتب ذلك فى تقرير ، ثم يختمه ثم يرسله إلى رئيس له ، فيجمع الرئيس هذه التقارير ثم يرفعها إلى السلطان ، وذلك لمصلحة الأمن ودرء المخاطر عن سواد الشعب .

وفى مرة شغل الرجل الموظف هذا بشغل ما فى يومه ، فبعد أن تحسس الأخبار والأقوال فى سوقه ، كتب ما سمع وختمه نادى ابن أخ له ، اسمه أحمد الصغير ، وقال له :

● هل تعرف يا أحمد محل رئيسى الذى يتسلم منى التقرير كل يوم ؟ .

● قال الصغير : نعم .

فقال العم : إذن اذهب بتقرير اليوم هذا مختوماً فأعطه لرئيسى ، وقل له : شغل عمى فجأة ، وهذا تقريره .

وأخذ الصغير التقرير ، ومشى فى اتجاه قلب المدينة إلى حيث دائرة ذلك الرئيس الأمنى ..

ولو أنه أدى الأوراق كما أمره عمه ، لمرت الحادثة ، وغفل عنها التاريخ ، ولم نذكرها نحن اليوم بعد قريب من أربعة عشر قرناً .. ولكن الغلام يومئذ . تصرف تصرفاً رائعاً ، أثبتته التاريخ ، وضجت به المحافل ، وسطرتة الكتب .. وذلك أن الطفل ذاك مر على جسر على نهر فى الطريق ، وإذا نفسه تخذله :

يا أحمد .. إنك صغير .. ولكنك تعرف عمل عمك ، إنه يكتب كل ما يسمعه من الناس في السوق وما يعملونه ، وهذا محرّم في دين الله ، فهو نوع من التجسس والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ^(١) ، فأنت إذن يا أحمد .. تحمل شيئاً ممنوعاً ، وتساعد على أمر نهى عنه القرآن .

وفجأة تنبه أحمد الصغير .. لحديث نفسه وفوراً رمى التقرير بقوة في النهر وعاد إلى المنزل .

واستبطأ الرئيس التقرير ، فأرسل رجاله ، فأخبرهم العم أنه أرسله مع ابن أخيه .. فجاءوا إلى الغلام فسألوه .. فقال : رميته في النهر .

فصاحوا عجبين دهشين : ماذا ؟ كيف فعلت .. ولماذا ؟ .

قال : لأنه حرام .. فهو نوع من التجسس المنهي عنه .. ولا أريد أن أكون من المعينين عليه .

وبلغوا فوراً رئيسهم ما جرى ، فصّدع لها .. وصّدّم .. مع إعجاب هاجم .. وقال وهو يصفق بيديه : هذا غلام يتورع .. فكيف نحن ؟ ! .

ومن يومئذ .. أصبحوا ينظرون إلى ذلك الغلام .. كأنهم ينظرون إلى رجل كبير ..

فهل تعرف من كان ذلك الغلام ؟ إنه الإمام : « أحمد بن حنبل » العَلَم الكبير في الحديث والفقه ، والذي يسمى « إمام الورع » وهو أيضاً بطل الإسلام الخالد الذي لما حصروه بالفتنة في أيام المأمون .. دافع عن العقيدة الإسلامية دفاع الأبطال ، وتحمل كل أذى : ولم يقل في دين الله إلا ما يقوله

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ .

تَقَرَّرَ - وَالْحَدِيثُ - وَقَدْ ذَهَبَ أَصْحَابُ لَفْتَةٍ .. وَبَقِيَ (أَحْمَدُ بْنُ حَبِيلٍ ،
بَطْلَانِ إِسْلَامِيًّا رَائِعًا .. وَكَانَ مِنْذُ صَغُرِهِ يَتَوَرَّعُ ، وَيَتَصَرَّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَسَبَ
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .. رَحِمَهُ اللَّهُ ^(١) .



[٨٢] استجابة دعوة سعد وسعيد

● عن ابن عمر رضي الله عنه أن مروان أرسل إلى سعيد بن زيد رضي الله عنه باسمًا يكلمونه في شأن أروى بنت أوس - وخاصمته في شيء - فقال : يروني أظلمها ؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ظلم شبرًا من الأرض طوفه يوم القيامة من سبع أرضين » .

اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى يعمرى بصرها ، وتجعل قبرها في بئرها ، قال : فوالله ما ماتت حتى ذهب بصرها .. وخرجت تمشي في دارها وهي حذرة فوقعت في بئرها وكانت قبرها .

● كان الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مجاب الدعوة ، حيث دعا له رسول الله ﷺ عندما طلب من الرسول ذلك ، فقال له ﷺ : « أطب مطعمك تجب دعوتك » ، وجاء في الصحيحين عن جابر بن سلمة أن أهل الكوفة سلكوا سعداً إلى عمر في كل شيء حتى قالوا : لا يحسن يصلي ، فقال سعد : أما إني لا آلو أن أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ أطيل الأوليين الآخرين ، فقال عمر : هو الظن بك يا أبا إسحاق ، وكان قد بعث من يسأله عنه بمحال الكوفة ، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا خيراً ، حتى مروا بمسجد لبني عبيس فقام رجل منهم يقال له أبا سعدة ، فقال : إن سعداً كان لا يسير في السرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية القضية ، فبلغ سعداً ، فقال : اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة فأطيل عمره وأدم فقره وأعم بصره وعرضه للفتن ، فقال : فإنني رأيته بعد ذلك شيخاً كبيراً قد سقطت حاجباه على عينيه يقف في الطريق فيغمز الجوارى فيقال له ، فيقول شيخ مفتون أصابته دعوة سعد .

[٨٢] قصة الابن المبارك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما خلق الله مؤمناً سمع بي ولا يراني إلا أحبنى ، إن أمي كانت مشركة ، وإنى كنت أدعوها إلى الإسلام ، فتأبى على ، وإنى دعوتها ذات يوم فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ - ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إنى أمي امرأة مشركة ، وإنى كنت أدعوها إلى الإسلام ، فتأبى عليّ ، وإنى دعوتها فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدى أمي ، فقال : « اللهم اهد أم أبي هريرة » .

فخرجت أعدو أبشرها بدعوة رسول الله ﷺ فلما أتيت الباب إذا هو مجاف ، وسمعت خضخضة الماء ، وسمعت خشف رجلى ، فقالت : يا أبا هريرة ، كما أنت ، وفتحت الباب ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، فقالت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . فرجعت إلى رسول الله ﷺ أبكى من الفرح كما بكيت من الحزن ، فقلت :

يا رسول الله ، أليس قد استجاب الله دعوتك ، فهدى أم أبي هريرة ، ادع الله أن يحببني وأُمِّي إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إليّ ، واليها ، فقال : « اللهم حبب عبدك وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليه » ^(١) .

(١) رَوَدَ مُسْلِمٌ .

[٨٤] ورطة تساوي وزنها ذهباً ^(١)

دخل أحد السلف أحد المزارع وكان جائعاً متعباً فشدته نفسه لأن يأكل وبدأت المعدة تقرر ، فأطلق عينيه على الأشجار فرأى تفاحة فمدّ يده إليها ثم أكل نصفها بحفظ الله ورعايته ثم شرب من ماء نهر بجانب المزرعة ، لكن انتبه بعد ذلك من غفلته بسبب الجوع وقال لنفسه : ويحك كيف تأكل من ثمار غيرك دون استئذان ؟ وأقسم ألا يرحل حتى يدرك صاحب المزرعة ويطلب منه أن يحلل له ما أكل من هذه التفاحة ، فبحث حتى وجد داره فطرق عليه الباب فلما خرج صاحب المزرعة استفسر عما يريد ... قال صاحبنا : دخلت بستانك الذى بجوار النهر وأخذت هذه التفاحة. وأكلت نصفها ثم تذكرت أنها ليست لى وأريد منك أن تدنرنى فى أكلها وأن تسامحنى عن هذا الخطأ ، فقال الرجل : لا أسامحك عن هذا الخطأ إلا بشرط واحد ، قال صاحبنا وهو « ثابت بن نعمان » : وما هو هذا الشرط ؟ ، قال صاحب المزرعة : أن تتزوج ابنتى ، قال ثابت : أتزوجها ، قال الرجل : ولكن انتبه إن ابنتى عمياء لا تبصر ، خرساء لا تتكلم ، وصماء لا تسمع ، وبدأ ثابت بن النعمان يفكر ويقدر - انعم بها من ورطة - ماذا يفعل ؟ .

ثم علم أن الابتلاء بهذه المرأة وشأنها وتربيتها وخدمتها خير من أن يأكل الصديد فى جهنم جزاء ما أكله من التفاحة ، وما الأيام وما الدنيا إلا أياماً معدودات ، فقبل الزواج على مضض وهو يحتسب الأجر والثواب من الله رب

(١) قصص إيمانية ، عادل العبد العالى .

لعائنين ، وجاء يوم الزفاف وقد غلب الهم على صاحبنا ، كيف أدخل على امرأة لا تتكلم ولا تبصر ولا تسمع فاضطرب حاله وتمنى أن لو تبتلعه الأرض قبل هذه الحادثة ولكنه توكل على الله وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل عليها يوم الزفاف فإذا بهذه المرأة تقوم إليه وتقول له السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فلما نظر إليها تذكر ما يتخيله عن الحور العين في الجنة ، قال بعد صمت : ما هذا ؟ إنها تتكلم وتسمع وتبصر ، فأخبرها بما قال عنها أبوها ، قالت : « صدق أبي ولم يكذب » .

قال : اصدقيني الخبر ، قالت : « أبي قال عني إنني خرساء لأنني لم أتكلم بكلمة حرام ، ولا تكلمت مع رجل لا يحل لي .. وإنني صماء ما جلست في مجلس فيه غيبة ونميمة ولغو .. وإنني عمياء لأنني لم أنظر إلى أى رجل لا يحل لي » .

فانظر واعتبر بحال هذا الرجل التقى وهذه المرأة التقية وكيف جمع الله بينهما ، وكانت الثمرة مولوداً ملاً طباق الأرض علماً ، إنه ابنها الإمام الأعظم « أبو حنيفة النعمان » .



[٨٥] ضربة الحليم ^(١)

لما عجز المعتصم عن ثني الإمام أحمد - رحمه الله - عن رأيه في القرآن نصب له آلة التعذيب ومده الزبانية عليها وضربوه حتى انخلعت كتفه وانبتق الدم من ظهره فقال له المعتصم :

يا أحمد : قل هذه الكلمة وأنا أفك عنك يدي وأعطيك وأعطيك ..
والإمام أحمد يقول :
هاتوا آية أو حديثاً .

فقال المعتصم للجلاد : « شد قطع الله يدك » فضربه ضربة أخرى فتناثر لحم الإمام ، وقال له عالم من جماعة الخليفة : ألم يقل الله تعالى :
﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٢) ، فقال له الإمام - رحمه الله - :

« اخرج وانظر أى شيء وراء الباب » فخرج إلى صحن القصر فإذا جمع لا يحصيهم إلا الله معهم الدفاتر والأقلام ..
قال : أى شيء تعملون ؟ .

قالوا : ننظر ما يجيب به أحمد فنكتبه ..

فرجع وأخبره ... فقال رحمه الله :

« أنا أضل هؤلاء كلهم ! أقتل نفسى ولا أضلهم » .

رحم الله الإمام أحمد .

(١) اللآلى الحسنان ، الجزء الرابع ، للمسنند .

(٢) سورة النساء الآية « ٢٩ » .

[٨٦] هكذا فلتكن النساء ^(١)

(أ) روى أن شريحاً القاضى قابيل الشعبى يوماً ، فسأله الشعبى عن حاله فى بيته فقال له : « من عشرين عاماً لم أر ما يفضبنى من أهلي » قال له : وكيف ذلك ؟ قال شريح : « من أول نية دخلت على امرأتى ، رأيت فيها حسناً فاتناً وجمالاً نادراً ، قلت فى نفسى فلأطهر وأصلى ركعتين شكراً لله ، فلما سلمت وجدت زوجتى تصلى بصلاتي وتسلم بسلامى ، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء قمت إليها ، فمددت يدى نحوها ، فقالت : على رسنك يا أبا أمية ، كما أنت ، ثم قالت : الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأصلى على محمد وآله ، إني امرأة غريبة لا عزم لى بأخلاقك ، فبين لى ما تحب فأتته ، وما تكره فأتته ، وقالت : إنه كان فى قومك من تتزوجه من نسائك ، وفى قومي من الرجال من هو كفاء لى ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك به الله إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولك ... » .

قال شريح : « فأحوجتنى - والله يا شعبى - إلى الخطبة فى ذلك الموضع فقالت : الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأصلى على النبى وآله وأسلم ، وبعد فإنك قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك حظك ، وإن تدعيه يكن حجة عليك ، أحب كذا وكذا ، وأكره كذا وكذا ، وما رأيت من حسنة فأنشيتها ، وما رأيت من سيئة فاستريتها .

(١) مرفاً ، يحيى سعيد آل شعلان .

فقلت : كيف محبتك لزيارة أهلي ؟ قلت : ما أحب أن يملنى أصهارى ،
فقلت : فمن تحب من جيرائك أن يدخل دارك فأذن له ، ومن تكره فأكره ؟
قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء » .

قال شريح : « فبت معها بأنعم ليلة ، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما
أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء فإذا بفلانة فى البيت
قلت : من هي ؟ قالوا : ختنك ، - أى أم زوجك - فالتفتت إلى وسألتنى :
كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة ، قالت : يا أبا أمية إن المرأة لا تكون
أسوأ حالاً منها فى حالين إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها ، فوالله ما حاز
الرجال فى بيوتهم شراً من المرأة المدللة ، فأدب ما شئت أن تؤدب ، وهذب
ما شئت أن تهذب ، فمكثت معى عشرين عاماً لم أعب عليها فى شىء إلا
مرة وكنت لها ظالماً » .



هكذا فلتكن النساء^(١)

(ب) سافرت إلى مدينة جدة في مهمة رسمية .. وفي الطريق ..
فوجئت بحادث سيارة .. يبدو أنه وقع لتوه .. كنت أول من وصل إليه ..
أوقفت سيارتي .. واندفعت مسرعاً إلى السيارة المصطدمة .. تحسستها في
حذر .. نظرت إلى داخلها .. حدقت النظر .. خفقات قلبي تنبض بشدة ،
ارتعشت يداي .. تسمّرت قدماي .. خنقتني العبرة ! ..
ترقرقت عيناي بالدموع .. ثم أجهشت في البكاء !!
منظر عجيب .. وصورة تبعث الشجن .. كان قائد السيارة ملقى على
مقودها جثة هامدة .. وقد شخص بصره إلى السماء .. رافعاً سبابته .. وقد افترّ
ثغره عن ابتسامة جميلة .. ووجهه تحيط به لحية كثيفة .. كأنه الشمس في
ضحائها .. والبدر في سناه !!
والعجيب .. أن طفله الصغيرة كانت ملقاة على ظهره .. محيطة بيديها
على عنقه .. وقد لفظت أنفاسها .. وودعت الحياة !! .
لا إله إلا الله ! لم أر ميتة كمثل هذه الميتة .. طُهر .. وسكينة .. ووقار ..
صورته وقد أشرقت شمس الاستقامة على محياه ..
منظر سبابته التي ماتت توحد الله ..
جمال ابتسامته التي فارق بها الحياة .. حلقت بي بعيداً .. بعيداً ..

(١) المرفأ ، يحيى سعيد آل شلوان .

تفكرت في هذه الخاتمة الحسنة .. ازدحمت الأفكار في رأسي .. سؤال
يتردد صده في أعماقي .. يطرق بشدة ... كيف سيكون رحيلي !!؟
على أى حال ستكون خاتمتي !!؟ ..

يطرق بشدة .. يمزق حجب الغفلة .. تنهمر دموع الخشية .. ويعلو صوت
التحجب .. من رآني هناك ظن أنني أعرف الرجل ، أو أن لي به قرابة ..
كنت أبكي بكاء الثكلى .. لم أكن أشعر بمن حولي ..

انساب صوتها يحمل برودة اليقين .. لامس سمعي .. ردني إلى شعوري
.. يا أخي ! لا تبك عليه .. إنه رجل صالح ! ..

هيا .. هيا .. أخرجنا من هناك ، وجزاك الله خيراً ..

التفت إليها .. تقبّع في المقعدة الخلفية من السيارة .. تضم إلى صدرها
طفلين صغيرين لم يمسا بسوء ، ولم يصابا بأذى ! ..

كانت شامخة في حجابها شموخ الجبال ..
هادئة في مصابها هدوء النسيم ..

لا بكاء .. ولا صياح .. ولا عويل !!
أخرجناهم جميعاً من السيارة ..

من رآني وراها ظن أنني صاحب المصيبة دونها !! ..

قالت لنا وهي تتفقد حجابها ، وتستكمل حشمتها ، في ثبات الراضي
بقضاء الله وقدره : لو سمحتم .. احملوا زوجي وطفلي إلى أقرب مستشفى ..
وسارعوا في إجراءات الغسل والدفن ! واحملوني وطفلي إلى منزلنا .. جزاكم
الله خير الجزاء ..

بادر بعض المحسنين إلى حمل الرجل وطفلته إلى أقرب مستشفى .. ومن ثم إلى أقرب مقبرة ، وأما هي .. فقد عرضنا عليها أن تتركب مع أحدنا إلى منزلها .. فردت في حياء وثبات : لا والله ! .

لا أركب إلا في سيارة فيها « نساء » !!

ثم انزوت عنا جنباً ممسكة بطفلها الصغيرين .. ريثما نجد بغيتها ، وتحقق منيتها .. استجينا لرغبتها .. وأكبرنا موقفها ..

مرّ الوقت طويلاً ونحن ننتظر على تلك الحال العصبية .. في تلك الأرض الخلاء .. ساعتين كاملتين .. حتى مرت بنا سيارة فيها رجل وأسرتة .. أوقفناه .. أخبرناه خبر هذه المرأة .. وسألناه أن يحملها إلى منزلها .. فلم يمانع .

عدت إلى سيارتي وأنا أعجب من هذا الثبات العظيم ..

ثبات الرجل على دينه واستقامته في آخر لحظات الحياة ..

وأول طريق الآخرة ..

وثبات المرأة على حجابها وعفافها في أصعب المواقف وأحلك الظروف !!

إنه الإيمان !!

إنه الإيمان ..

﴿ يَثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢٧) ﴿ (١)

[٨٧] وفاء أعرابي^(١)

أتى الحجاج بقوم كانوا قد خرجوا عليه ، فأمر بقتلهم وبقي منهم واحد ، فأقيمت الصلاة ، فقال الحجاج لقتيبة بن مسلم : ليكن عندك ، وتغدو به علينا ، قال : فخرجت والرجل معي ، فلما كانا في الطريق قال لي : هل لك في خير ؟ قلت وما هو ؟ إن عندي ودائع للناس ، وإن صاحبك لقاتلي ، فهل لك أن تخلي سبيلي لأودع أهلي ، وأعطي كل ذي حق حقه ، وأوصي بما عليّ ولي ، والله تعالى كفيل لي أن أرجع إليك بكرة ، قال : فتعجبت من قوله وتضاحكت ، قال : فأعاد عليّ القول ، وقال : يا هذا الله كفيل أن أعود إليك ، وما زال يلح عليّ إلى أن قلت : اذهب .

فلما توأرى عني كأنني انتبهت فقلت : ما صنعت بنفسي ؟ ثم أتيت أهلي فباتوا بأطول ليلة ، فلما أصبحنا إذا برجل يقرع الباب ، فخرجت وإذا به ، فقلت : رجعت ؟ قال : جعلت الله كفيلاً ولا أرجع ؟ فانطلقت ، فلما بصر بي الحجاج قال : أين الأسير ؟ قلت : بالباب أصلح الله الأمير ، فأحضرتة وقصصت عليه القصة ، فجعل يردد نظره فيه ، ثم قال : وهبته لك ، فانصرفت به ، فلما خرجت من الدار قلت له : اذهب أين شئت ، فرفع بصره إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد ، ولا قال لي : أحسنت ولا أسأت ، فقلت في نفسي مجنون ورب الكعبة .

فلما كان في اليوم الثاني جاءني فقال : يا هذا جزاك الله عنى أفضل الجزاء ، والله ما ذهب عني أمس ما صنعت ، ولكن كرهت أن أشرك في حمد الله أحداً .

(١) طرائف وملح ، لموسى الأحمدي .